اللغة العربية: محطات ومآلات تاريخية وحضارية – ترجمة -

The Arabic language, Stations and the historical and civilizational repercussions

-Translation-

د.وسيلة بوسيس **د. فيصل لحمر**

جامعة جيجل

boussiswassila@yahoo.com

تاريخ الاستلام:2020 /01/23 **تاريخ القبول:2020/06/03**

الملخص:

يقترح كتاب "أرابيسك. رحلة اللغة العربية إلى الغرب" للمؤلفين : هونرييت فالتر وبسام بركة المحرر باللغة الفرنسية أرضية بحث تستدعي حقّا أن نطّلع عليها ونترجمها ليس لأنها تعنينا وتعني لغتنا العربية المرتحلة ومجدها الحضاري فحسب بل لأنها تشكّل تصالحا وإضافة إيجابية وفعالة إلى المعرفة البشرية التي تنجح في القضاء على قطبية :الشرق/ الغرب حين تنجح في التناول الإيجابي والمثمر لقضايا التاريخ المشترك والمصير المشترك واللغة المشتركة التي ليست هي لغة الغربي أو العربي ، المسيحي أو المسلم ، المُقرض أو المُقترض لأنها ببساطة لغة الإنسان الكوني الخالد الذي يتجدد في ترحاله الأبدي وعناقه اللامشروط للآخر في مسيرة التطور الإنسانية . يتعرض هذا الكتاب إلى رحلة الألفاظ العربية إلى أوروبا عبر عدة لغات ولهجات وعلى امتداد القرون الخمسة عشر التي عرفت فيها اللغة العربية وجودا توسعيا وترحابا في مختلف الثقافات والأقاليم بحكم ارتباطها بالقرآن والدين الإسلامي واتخذت في تلك الرحلة عدة معابر؛ منها المعروف كالأندلس والشام ومنها الأقل شهرة كصقلية ومالطا وقشتالة وباقي أصقاع إيطاليا وخليج البلقان. وفي ذات الوقت يسلط الضوء على الألفاظ الأجنبية (الفرنسية تحديدا) التي استوطنت اللسان العربي وصارت جزءا من سلوكنا وممارساتنا اللغوية. تشير المقتطفات المترجمة في هذه المساهمة العلمية إلى المحطات التاريخية والحضارية الهامة التي تجسّد هذا الترحال بين الحضارتين الشرقية والغربية

الكلمات المفتاحية: أرابيسك، اللغة العربية، الشرق، الغرب، الاقتراض

Abstract:

in the book Arabesques, the adventure of the Arabic language in the West, Bassam Baraké and Henriette Walter offer a field of research that really challenges us and invites us to look closely and even to translate it not only because it concerns us and means a lot for our universal and human Arabic language as its cultural glory indicates, but also because it constitutes a reconciliation and a positive and effective complement to the human knowledge which unites humans by abolishing polarity: the east / the west when you manage to deal positively and productively with questions of common history, shared destiny and a common language which is not the language of the West or the East, Christian or Muslim, lender or borrower for it is simply the language of the cosmic and immortal person who renews himself in his eternal journey and his unconditional embrace of the other e during human development

This book is exposed to the journey of the Arabic words to Europe through several languages and dialects and throughout the fifteen centuries in which the Arabic language was known as an expansionary and welcoming presence in various cultures and regions due to its association with the Qur'an and the Islamic religion and took in that several crossings, including known as Andalusia and the Levant and among them the lesser known as Sicily and Malta and Castile And the rest of the parts of Italy and the Balkan Gulf. At the same time, it highlights foreign words (specifically French) that have settled the Arabic tongue and have become part of our linguistic behavior and practices. The translated quotes in this scientific contribution refer to the important historical and civilizational stations that embody this journey between the eastern and western civilizations.

Keywords: Arabesques, Arabic language, east, west, borrowing

مقدّمة الترجمة:

ينتمي كتاب "أرابيسك" رحلة اللغة العربية إلى الغرب[1] إلى البحوث الأكاديمية اللسانية/المعجمية التي سلّطت الضوء على القضايا العلمية والتعليمية التالية:"أصول اللغة العربية، انتشار الإسلام واللغة العربية، معجم الألفاظ الفرنسية المقترضة من العربية، معجم الألفاظ العربية المقترضة من الفرنسية،

الكتابة وفن الخط العربي..) لذلك فترجمته تشكل إضافة هامة إلى الحقل العلمي والتعليمي الأكاديمي(التاريخي، اللساني، المعجمي، الفني) وبالنظر إلى حاجة طالب المعرفة المستمرة إلى اكتشاف وضع اللغة العربية بين اللغات واكتشاف ما يحف هذا الوضع من أسرار ،فإن هذا الكتاب يعتبر مرجعا ودليلا يجيب عن كثير من أسئلة البحث اللغوي مع التركيز على واحدة من أهم القضايا اللغوية قديما وحديثا : "الاقتراض" التي هي إحدى مرايا الإشعاع الثقافي والحضاري والإنساني العاكسة لعمليات التفاعل القائمة بين اللغات وإحدى وسائل نمو الثروة اللغوية، علاوة على ذلك، تبدو فائدة هذه الترجمة الملموسة على مستوى تعليمية اللغة العربية في البسط المنهجي الدقيق لدراسة الألفاظ المهاجرة من اللغة العربية وإليها من خلال مصفوفة معجمية مرتبة مزوّدة بمحددات زمنية وجغرافية تعيّن زمن دخول الألفاظ أو خروجها أو تساعد على رسم دورة حياتها وموتها وهو عمل ايتيمولوجي / تأثيلي يكاد يغيب تماما عن معاجمنا العربية الثنائية .

1- محطات ومآلات تاريخية وحضارية

2-العربية لغة الفكر والعلم في القرون الوسطى[2]

لقد سيطرت اللغة العربية على جميع المعارف بدءا من القرن التاسع وذلك في جميع أصقاع العالم متجلية في التعليم الجامعي والفلسفة. وستنتشر هذه المعارف العربية في الأوساط الثقافية الأوروبية خصوصا بإيعاز وتأثير من ثلاثة مفكرين عرب كبارهم: ابن سينا، ابن رشد، ابن ميمون.

2-1-1-ابن سينا الفيلسوف الطبيب[3]

ولد عام 980 قرب "بخارة" وتوفي عام 1037 في إصفهان، عُدّ أشهر أطباء زمنه مباشرة عند بلوغه سن الثامنة عشر. حرر كتابه الشهير"القانون" باللغة

العربية راصدا في شكل قواعد وقوانين كل المعارف الطبية لزمنه، ورافق هذا الكتاب قصيدة تعليمية نظم فيها ابن سينا خلاصة جيدة لتجاربه في الميدان.

ترجم هذا الكتاب سبعا وثمانين مرة أغلبها إلى اللاتينية وإلى العبرية وقد عُدّ قرآن طلبة الطب في الجامعات الأوروبية، بدءا من مدرسة الطب بمونبولييه التي هي أقدم واحدة في أوروبا. وتدل جيدا على أهمية هذا الكتاب في الغرب الطبعة العربية الفاخرة لهذا الكتاب التي ظهرت في روما عام 1593.ولا تقل أهمية عند هذا تعليقات ابن سينا حول فلسفة أرسطو التي تعود إليها النهضة الفكرية في جنوب أوروبا في القرن العاشر للميلاد في صقلية، وفي طنجة في ق12 ثم لاحقا بفرنسا.

2-1-2- ابن رشد: ترحاب في الغرب أكثر منه في الشرق

يرتبط اسم ابن رشد بابن سينا باستمرار في الغرب والراجح في ذلك أن كليهما يعدان من شُرّاح أرسطو في الوسط الأوروبي، فالعالمان المذكوران اشتهرا أكثر من أعمال أرسطو نفسها بسبب ترجمتهما إلى اللاتينية.

الغريب هو أن ابن رشد ينتمي إلى ثقافة أخرى ومنطقة أخرى وزمن آخر عدا ابن سينا، فقد ولد بقرطبة في 1126 وتوفي بمراكش في 1198، وقد كانت شهرته في أوروبا كلها لا نظير لها إلى درجة ظهوره في الكوميديا الإلهية لدانتي وظهوره على لائحة الفلاسفة الكبار في لوحة رافائيل الشهيرة" مدرسة أثينا'

2-1-3- ابن ميمون: عالم الدين اليهودي في ق12

ابن ميمون فليسوف وعالم دين من نفس جيل ابن رشد، ولد بقرطبة عام1135، كان طبيب البلاط لدى السلطان صلاح الدين في مصر، توفي بالفسطاط بالقاهرة عام1204.تأثر بالثقافة الإسلامية بعمق كبير وكتب مؤلفات بالعربية وبالعبرية أيضا، في الفلسفة والطب وكذلك في علوم الدين العبرية،

والجميع يعرف تعليقاته حول الكتاب المقدس "الميشناه" (الصيغة المختصرة للتلميذ) ولأفكاره أصداء كبيرة لدى فلاسفة أوروبا وخصوصا سبينوزا[4]

2-2- ألف ليلة وليلة

2-2-1- الصيت الذائع لألف ليلة وليلة بسبب الترجمة إلى الفرنسية[5]

قام المستشرق الفرنسي أنطوان ڤالون Antoine Galland المتبحّر في معرفة اللغات: العربية، الفارسية والتركية بنقل حكايات ألف ليلة وليلة إلى القارئ الفرنسي عن النص الأصلي العربي ابتداء من عام 1704. ثم بعد ذلك، وبإيعاز من معاصريه قام بإتمام النسخة الأولى من الترجمة بإضافة حكايات أخرى نقلها له عن طريق المشافهة أحد الرواة من أصل حلبي

تجاوب الجمهور بسرعة مع هذه الترجمة لأنها استجابت لذائقة القراء الفرنسيين الذين طوّروا شغفا كبيرا بالقصص العجائبية منذ نهاية القرن السابع عشر مع قراءة "الجنيات البارزات" les Illustres fées للكاتبة Madame d'Aulnoy (1697) ، و"حكايات أمي البطة" les Contes de ma mère l'oye للكاتب Charles Perrault (1697)[6]

في المرحلة ذاتها أيقظت مؤلفات مادموازيل دوسوديري Mademoiselle de Scudéry ومادام دو فيلديو Madame de Villedieu في عقول القراء الفرنسيين فضولا كبيرا ناحية مجتمعات العالم الإسلامي وما يحفها من أسرار وخبايا.

ختاما نقول أن هذا المؤلف قد قدّم بحرية بالغة وصفا للمؤامرات الغرامية، ولحوارات النساء الجميلات، المثقفات المتحررات، الشيء الذي نال إعجاب وحظوة المجتمع الفرنسي الذي كان يتميّز بالرهافة والتحرر البالغ في المرحلة الارستقراطية من ذلك الوقت[7]

إن نجاح الطبعة الفرنسية لهذه الحكايات قد جعل السحر المشرقي الكبير ينتقل إلى الغرب بشكل سيعم عالم الفنون والآداب وسط شغف بهذه الحكايات سيمكن لظهور ترجمات أخرى لها في البلدان الأوروبية

2-2-2- في البلدان العربية[8]

بالمقابل نجد مؤرخي الأدب العربي الأوائل قليلي الاحتفاء بهذه الحكايات التي فتنت الغرب، وضروري في هذا السياق أن نسأل عن سبب ذلك. ربما يكون التفسير هو لغة هذه الحكايات الشعبية وهي لغة مألوفة خالية من كل تفنن، معلوم أن الحكايات قد حوت كثيرا من المقاطع الشعرية إلا أنها تظل أشعارا بسيطة لا ترقى إلى تطلعات النقاد، كان علينا أن ننتظر عام 1814 أي حوالي قرنا كاملا بعد ظهور ترجمة أنطوان ڤالون لكي تظهر الطبعة العربية الأولى لليالي (طبعة كلكوتا) .

من غريب الأمر أن نلاحظ أن الأسباب نفسها التي أدت إلى تأخر الطبعة الأولى لليالي -المتمثلة تحديدا في ضعف اللغة وفقرها- هي نفسها الأسباب التي أدت إلى الاغتناء والتحول الكبير الذي عرفته اللغة الأدبية في العصر الوسيط بفضل الأثر القوي للغات والثقافات المجاورة.

2-2-3-ثراء اللغة[9]

فيما عدا المد الكبير الذي عرفته اللغة العربية في الشعر والنثر فإن العصر الوسيط قد شهد انتشار هذه اللغة وشمولها في فترة لا تزيد عن عدة عقود من الزمن لمجمل المعارف الإنسانية لتلك الفترة (عد إلى عنصر: اللغة في مواجهة الوافدين الجدد) وسواء أكانت هذه المعارف من أصل هندي أو إغريقي أو فارسي أو لاتيني فإن كل المعرفة الإنسانية العتيقة كانت قد صارت محل دراسة في المساجد التي تجمع إلى دورها في العبادة دور المكان الذي يحتوي التدريس الذي كان حرا أو

متاحا أمام الجميع، وكل ذلك كان يحدث حصريا باللغة العربية لأجل وضع اليد على المعارف الجديدة الواردة من ثقافات الماضي وحضاراته، ومن أجل التعبير عن خلاصات هذه المعارف ابتكر المفكرون العرب أنظمة اصطلاحية جديدة سواء من خلال القياس، أو التعريب المباشر للمصطلحات الإغريقية، اللاتينية وكذا الفارسية وبالإضافة إلى ذلك فإن معجم الحياة اليومية هو الآخر قد اغتنى بفضل ما اكتسبه من مفردات اللغات الأجنبية والدخيلة .

3- ثلاث حالات خاصة: اسبانيا، صقلية ومالطا.[10]

عرف التوسع الإسلامي الذي بلغ في القرون الوسطى حدود العالم الممتد من الصين إلى بواتييه (غرب فرنسا) ومن افريقيا إلى سهوب سيبيريا، مصائر مختلفة طبقا للشعوب وللطبيعة الجغرافية للمناطق التي تم فتحها، كما ترك هذا التوسع في أوروبا آثارا عميقة مستدامة.

3-1- الأندلس

لقد عبر المسلمون وتأثيرهم الحضاري البحر الأبيض المتوسط كي يصلوا إلى أوروبا ويبلغوا ثلاثة أقاليم متميزة: الأندلس صقلية ومالطا، ولعل المنطقة التي عاشت المغامرة الأدوم والأفضل ولأثرى هي بلا ريب منطقة الأندلس.

في عام 711، أرسلت الحكومة القائمة على شمال إفريقيا التابعة للأمويين جيشا من البرابرة المسلمين لفتح شبه الجزيرة الإيبيرية، ذلك البلد الثري والممزق سياسيا، والذي يملك واجهة بحرية مثالية للتجارة والحرب. بدأت الفتوحات في المدن الكبرى قبل أن تمتد جغرافيا إلى باقي البلاد في منتصف القرن العاشر.

3-2- العربية لغة موحدة[11]

ساعدت اللغة العربية على توحيد شعوب الأندلس في شبه الجزيرة الايبيرية إذ تحولت هذه اللغة بسرعة إلى أداة التواصل الموحدة بين السكان. ولشدة تعلق

البربر بها تخلوا عن لغتهم الأصلية وتبنوها، أما الشعوب الأخرى سواء التي اعتنقت الإسلام أم التي لم تفعل فقد تعوّدت شيئا فشيئا على استعمالها وتبنيها.

جدير بالذكر أن نشير إلى أن المستعربين تعلموا– إلى جانب اللاتينية-اللغة العربية بل إنهم برعوا في اكتسابها أفضل من لغتهم الأصلية، وبفضل لسانهم مزدوج اللغة ومعارفهم في الفكر والفلسفة الإسلامية الشرقية تحوّل هؤلاء إلى جسر ثقافي حقيقي بين العالمين المسيحي والإسلامي اللذين تعايشا في اسبانيا في تلك الفترة إضافة إلى ذلك فإن بعض المستعربين اللذين نطقوا بعربية سليمة كانوا يمارسون الكتابة العربية بسلاسة تفوقوا بها عن المسلمين أنفسهم

كان واضحا أن اللغة العربية حمّالة ثقافة متميّزة ومتفرّدة سحرت وألهمت شعوب أوروبا، الأمر الذي أقلق بعض العقول المتأسّية، على شاكلة الكاتب المتدين والواعظ المشهور المستعرب "ألفار القرطبي"Paul Alvare de cordoue من القرن التاسع الذي عاتب العلماء المسيحيين على تضييع وقتهم في محاكاة إنتاج العلماء العرب في الوقت الذي كان هو نفسه يكتب أحيانا بالعربية على حساب اللاتينية.

3-3- العربية لغة الحوار[12]

إن مزيج الأعراق والأديان قد خرج مخرجا إيجابيا في اسبانيا، فقد انتشرت طيلة العصر الوسيط ثقافة الحوار والحجاج والجدل وكل ذلك في حاضنة اللغة العربية؛ لغة القرآن الكريم، والتي قد تحولت إلى لغة المعرفة المتبحرة، أبعد من ذلك ما كان يفعله بعض العلماء من محاورات دينية خيالية يفترض فيها العالم محاورا يجادله ويعترض عليه فيما يقوله ثم ينشئ الردود البديعة في هذا الإطار.

هذا ما خوّل للكاتب اليهودي يهودا هاليفي Yehuda halevi أن يسطر باللغة العربية كتابه في الجدل الديني أين يتصور ثلاثة علماء من الديانات الثلاثة فيما هم يحاولون إقناع ملك الخزر بأن ديانته هي وحدها الصحيحة ، إنه كتاب :"الحجة

والبرهان في شرح أفضل الأديان" الذي ترجم إلى العبرية بعد أربعين سنة من ظهور الطبعة العربية

3-4- الأندلس . مهد الأشكال اللغوية المتميزة[13]

بالرغم من بعد مسافة الأندلس عن بغداد؛ معقل الثقافة العربية الإسلامية إلا أن هذه المنطقة قد شهدت بزوغ أنوار حضارية ساطعة. من المسلم به أن جل النّحل التي عرفتها الثقافة العربية الإسلامية تعود ينابيعها إلى بغداد وإلى دمشق ، فالكتب التي ألفت والتي عرّبت أو تُرجمت من اليونانية والفارسية والتي كانت تجوب العالم لتصل إلى الأندلس كان جلها صادرا من المشرق ، على يد أخرى فإن القصائد التي كانت تشهد ميلادها قصور بغداد والشام ، كانت تردد في الأندلس من قبل الحفظة والمتأدبين المسافرين إلى قرطبة وإلى غرناطة .

على مر القرون صار فلاسفة الأندلس وكتابها أتباعا جيّدين لكبار مؤلفي المشرق، بل إن بعض المذاهب الأدبية كانت تجد أصداء في الأندلس أكثر مما تجده في مهدها الأوّل بالمشرق.

إن ولع الحياة الثقافية والعقلية ببغداد كان يتجاوز الجمهور الإسلامي في الأندلس إلى جمهور الديانات الأخرى ومن ذلك ما كان يعرف عن المفكر اليهودي شلومو ابن جبيرول Shelomoh ibn Gabirol الذي عاش في القرن الحادي عشر من أنه خير أتباع الفيلسوف ابن سينا الذي كان يدرس ببغداد

والخلاصة أن طابع الانفتاح على مؤثرات الشرق ومصادر الإلهام الآتية تحديدا من بلاد الأندلس قد أدى إلى خلق أشكال أدبية جديدة ساهمت بقوة في تطوير فن الشعر لدى الغرب

4- مراكز الترجمة[14]

كثيرة هي مراكز الترجمة التي تم إنشاؤها في الأندلس وخاصة في طليطلة التي كانت ملتقى العديد من العلماء الأجانب، من بينهم أديلار الباثي Adélard de Bath الذي ترجم كتاب إقليدس الشهير "العناصر" بالارتكاز على نسخة عربية ، وكذلك كتاب "الجداول الفلكية" للخوارزمي

مترجمون آخرون وردوا من إيطاليا من أمثال جيرار دوكريمون Gerard de Crémone المعروف بالترجمة اللاتينية لأشهر كتب ذلك الزمان في الطب:"كتاب ابن سينا، كما كانوا يردون من فرنسا كما هي حال جيربار دورياك

4-1- جمهرة من المعاجم ثنائية اللغة[15]

مع منتصف القرن الثالث عشر استشعر المسيحيون الذين كان شأنهم قد بدأ يعلو الحاجة إلى إعادة نشر ديانتهم وسط جمهور المسلمين فشعروا نتيجة لذلك بالحاجة إلى معاجم ثنائية اللغة. أُلف في هذا الصدد «المعجم اللاتيني العربي - العربي اللاتيني" تحت عنوان فوكابوليستا Vocabulista وهو لمؤلف مجهول، كما اشتهر في القرن الخامس عشر معجمان ألفهما الأخ بيدرو القالي Le frère Pedro Alcalá هما:"آرطي"Arte، وفوكابوليستا Vocabulista تميزا بالنقل الصوتي للكلمات العربية بواسطة الحروف اللاتينية.

5- صقلية[16]

بينما دام التواجد العربي في الأندلس حوالي سبع قرون نجده لم يمتد في شبه جزيرة صقلية غير قرنين ونصف القرن؛ من منتصف القرن التاسع م إلى خواتم القرن الحادي عشر م ، إلا أن ذلك لم يمنع بقاء الأثر العربي العميق والمديد حتى بعد سقوط صقلية بين أيدي النورمنديين (1072) ، فالأثر العربي ظل فاعلا ومحسوسا في الحياة العلمية والثقافية للجزيرة ويمكن تلمسه بوضوح في حقول: الطب ، الجراحة ، الفلك ، العمران ، الشعر ، الموسيقى ، الرقص .

5-1-فتح صقلية[17]

لقد جاء الفتح من شرق افريقيا، أي السواحل الحالية لتونس إذ بدأ المسلمون في محاولة الدخول إلى صقلية منذ بدايات القرن الثامن ، قبل أن يتم تنظيم عملية احتلال منظمة ومستدامة للجزيرة مع بداية القرن التاسع من خلال إجلاء البيزنطيين عنها ، فبعد أن ورد المسلمون إلى غرب صقلية عام 827 بدأت سلالات من حكام المسلمين103 تبسط هيمنتها تلقائيا على مختلف مناطق الجزيرة 827-878 متخذة من مدينة باليرمو عاصمة للجزيرة بدءا من عام 831 و تصير بذلك الإمارة العربية المسلمة القوية والمتطوّرة ، المسماة جزيرة صقلية .

كان يتم تنصيب الخلفاء والأمراء في باليرمو مقر الحكومة العسكرية التي تحولت في الوقت نفسه إلى محل إداري ومركز إشعاع ثقافي يحيط بالمسجد الكبير؛ المعلم الذي يمثل السيادة السياسية والدينية للإسلام في صقلية، لكن هذا الوضع الذي سيستمر قرنين كاملين سيتغير حين يتم إجلاء هؤلاء بدورهم لفائدة الهيمنة النورمندية .

5-2- الأثر العربي يستمر تحت الحكم النورمندي[18]

شرع النورمانديون في الاستيلاء على أرض ميسينيا في 1061 قبل أن تمتد ظلال الهيمنة على الجزيرة برمتها بدءا من عام 1091 . مع سقوط باليرمو عام 1072 كان متوقعا أن يزحزح تغلب النورمنديين أثر الحضور العربي في جزيرة صقلية ولكن يبدو أن الحدث الوحيد المثير للانتباه هو تحويل المسجد الكبير إلى كاتدرائية105 في ظل مواصلة السكان المسلمين العيش والتعايش مع الغزاة الجدد الذين جاؤوا مزوّدين باحترام حميد لحرية المعتقد الديني .

يضاف إلى ذلك أن الملوك النورمانديين قد تبنوا نمط معيشة مشرقي تماما ، محيطين أنفسهم بمستشارين وفنانين وعلماء من أصول متفرقة :إغريقية ، لومباردية وخاصة عربية

من آخر هؤلاء الأخيرين ستظهر شخصية مرموقة جدا هي الجغرافي والعلامة العربي : "الإدريسي" الذي عاش في بلاط الملك النورماندي روجر دو هوطفيل Roger de Hauteville المشهور تحت كنية روجر الثاني الصقلي

6- مالطا[19]

ما حدث لصقلية حدث أيضا لمالطا إبان التواجد العربي الإسلامي، إلا أن الأثر اللغوي الظاهر في مالطا مختلف عما ذكرناه سابقا مع صقلية. ومن غريب الأمر أن صقلية التي كانت مركز عبور لغوي هام في التاريخ اللغوي المشترك بين العربية واللغات الأوروبية لم تحافظ على كثير من الألفاظ العربية مقارنة مع مالطا التي يغلب على لغتها أن تكون لغة ذات طابع عربي. وبشكل دقيق فإنه من غريب الأمر أن اللغة العربية لم تحافظ على شكلها على وجه مثالي لا في الأندلس ولا في صقلية على عكس الحال في مالطا أين نجدها بوجه آخر مختلف حامل لسمات مميزة شكلت اللغة المالطية، هذه اللغة السامية التي يتكلّمها أهل مالطا بجزيرتها: مالطا ، وفيها عاصمة البلاد وجزيرة ڤوزو المشكّلة من ثلاث جزر / مدن : كومينو comino ، كومينوتو cominotto ، وفيلفولا Filfola

6-1- نبدة تاريخية[20]

لقد فجّر الموقع الاستراتيجي لجزيرة مالطا في قلب البحر الأبيض المتوسّط كثيرا من الأطماع ومنه كثيرا من الغزوات المتتالية ، فبعد الفينيقيين والقرطاجيين (700-800 ق.م) جاء التواجد الروماني الذي عمّر طويلا بدءا من 218 ق.م إلى غاية

دخول المسلمين عربا وبربرا قادمين من تونس عام 870 ؛ تواجد سيدوم قرابة قرنين كاملين إلى غاية 1090، أعقبه التواجد الصقلي الذي دام إلى غاية 1530 ، هذا التاريخ الأخير عرف هدنة مطوّلة بسبب نشأة نظام يسمى : النظام المالطي الذي عرف بسلميّته وكرمه وحسن ضيافته للآخر والذي استمر إلى غاية الاحتلال قصير المدى لنابليون بونابرت بين عامي 1798-1800 لكي يعقب ذلك أكثر من قرن ونصف من التواجد الانجليزي الذي سينتهي عام 1964باستقلال البلاد .

على هذه الأرض ذات التاريخ المحمّل بالأحداث نشأت لغة خاصة جدا نراها جديرة بوقفة متأنّية

6-2- المالطية لغة عربية متميّزة جدا[21]

الملاحظة الأولى التي تفرض نفسها هي أن اللغة المالطية هي نوع خاص ضمن النظام العام للغة العربية ذلك أنها تتمتع بالخاصية المتفردة المتمثلة في المحافظة على التصويت العربي في حين أنها تكتب بالحرف اللاتيني، وهو أمر غريب إذا ما استذكرنا فكرة أن التواجد العربي هنالك لم يتجاوز القرنين وهي فترة أقل بكثير من التواجد الروماني الذي عمّر عشرة قرون ، إن المتأمل في هذه اللغة يتمكن بيسر من لمح الطابع العربي المحض الماثل في البنيات النحوية وكذا البنيات المفرداتية المستعملة . من أجل تفسير هذا المسار المتميّز ورحلة التطور التي أفضت إلى هذا الوضع اللغوي علينا أن نذكر بأن اللهجة المالطية قد عاشت بدءا من القرن الثالث عشر في ظل الكنيسة الرومانية، أي بعيدا عن مصادر التأثير العربية الإسلامية المختلفة وبمنأى عن سطوة القرآن الكريم الذي غالبا ما يلقي بضلاله على اللغة العربية كما هو معروف .

7-أصداء الخط العربي في أوروبا[22]

على أحد أسوار قصر الحمراء في غرناطة القرن الثالث عشر كان يمكننا مشاهدة الخطوط والزوايا التي تميز الخط الكوفي والتي تتقاطع حينا وتتنافر أحيانا لتشكيل أوراق وزهور شديدة الجمال، يمكننا قراءة كلمة "بركة" مكتوبة بشكلين متقابلين كأن إحداهما انعكاس للأخرى على مرآة ما ، فقد راج الخط العربي عبر كامل أرجاء أوروبا التي أولعت به إلى درجة كبيرة جدا بلغت دخول فن جديد إلى أوروبا هو فن "الأرابيسك" الذي غزى كل أشكال الرسم في الغرب

8- أرابيسك (المنمنمات العربية)[23]

بالموازاة مع فن الخط العربي ، ابتكر العرب المنمنمات من أجل خلق بعد تزييني وعناصر جمالية تمثل أشكالا بشرية ، بحيث يمكننا أن نقول أن المنمنمات التي هي جزء من الخط العربي قد راجت رواجا فاق رواج الخط العربي لشدة ولع الأوروبيين بها ، هي فن عربي محض يعتمد على توشيح نباتي تمثل فيه الأوراق وفروعها المتعانقة أصلا لحركات إيقاعية تشغل الفضاء كله وسواء كانت مسطحة أو مجسمة ، عريضة أو رقيقة ، مقعرة أو محدبة فإن هذه الأوراق تنتهي دائما لأن ترتبط بفروع أو بأوراق أخرى . لقد دخلت المنمنمات أوروبا عبر بوابة إيطاليا وبوابة البندقية Venise فوق البوابات الأخرى ، هذه المدينة التي كانت في مرحلة النهضة على صلات تجارية شديدة الإثمار مع المشرق الإسلامي ، هذا الفن التجميلي كان يستعمل لتوشيح أصناف كثيرة من الكتب وقطع الزليج ومختلف التحف المعدنية والأقمشة والملابس وربما كانت الأشكال التزيينية التي توشي الأقمشة هي التي لعبت الدور الأوسع في نشر المنمنمات العربية في أوروبا .

يمكننا أن نلاحظ وجودها بدءا من عام 1308 على لوحات الفنان دوتشيو دي بونينسينيا Duccio di Buoninsegna في مدينة سيينا Sienne ولاحقا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر في أعمال رسامي البندقية من أمثال سيما دي

كونيليانو Cima da Conegliano وفيتوري كارباتشو Vittore Carpaccio والرسام بالما Palma الأكبر.

وهنالك أنماط أخرى من المنمنمات كثيرا ما وشت ثياب الشخصيات التي كثيرا ما ظهرت على لوحات النهضة الإيطالية أو في أجزاء منها كما يظهر على حواشي الجدارية الكبرى للرسام رفايلو Raphaël :"نزاع القربان المقدّس " La dispute du Saint-Sacrement .

في هذه الفترة كان ليوناردو دي فانشي Léonard de Vinci يمثل أنموذجا استثنائيا، إذ نجد في كراساته كثيرا من الأبحاث الخطية التي ماهي إلا تكرارات لا نهائية لأشكال هندسية معينة تتعانق بشكل أنيق، وإحالة هذا التجريب الخطي على المنمنمات العربية واضحة .

لقد انتشر في أعمال ليونارد دي فانشي طريقة "العقد المتواشجة" حيث نجدها في كثير من تصاويره، وهي طريقة انتقلت إلى الأجيال الموالية ، إذ نجد صدى لهذه الطريقة لدى الرسام الجرماني دورر Dürer .

ستدخل المنمنمات فرنسا حوالي عام 1510وستنتشر بسرعة على جلود عديد من الكتب التي ألفت لتهدى للملك لويس الثاني عشر. هذه المنمنمات التي سيعيد بعثها في عصرنا هذا الفنان الكبير هونري ماتيس Henri Mtisse الذي نلاحظ لديه ميلا مشهودا واستثنائيا لتوشيح لوحاته بالمنمنمات .

الخاتمة:

يهدف العمل الذي بين أيدينا إلى:

*-تقديم صورة حقيقية عن واقع اللغة العربية باعتبارها لغة حيّة وقابلة للتجدد ، حالها حال الفرنسية والاسبانية والإيطالية أو الانجليزية وهي في الغالب تتقاطع

جميعها في ممارستنا اليومية المألوفة وتسجل حضورا قد لا نشعر به جيدا في كثير من سلوكاتنا التواصلية

*-يعرض الكتاب لمواد لغوية ولسانية متنوعة تبيّن للباحثين في التاريخ وفي اللغة وعلم اللسان المقارن وجها خفيا يتمثّل في التعالقات القائمة بين اللغات (خاصة في المستوى المعجمي) ، أقل ما يمكن أن يكشف عنه تلك الجذور المعروفة التي هاجرت واستوطنت في لغات غير اللغة العربية ، كما يكشف علاوة على ذلك عن كثير من الصيغ والمباني وحتى الصور الثقافية أو المتخيّلات التي تهيمن على اللغات الأجنبية بأبنيتها العربية والتي تدل على قوة الأثر العربي العابر للحضارات والأزمنة .

*-يقدّم الكتاب اعترافا واسعا بفضل العرب والثقافة الإسلامية على كثير من الحقول المعرفية الغربية كما يشكّل ردّا على من يدّعون بأن الهمجية أصل في الثقافة والتاريخ العربيين الإسلاميين، وبصيغة أخرى فهو يرسم صورة إنسانية عن الحوار الحضاري المثمر بين الثقافات.

المراجع والمصادر:

1. Henriette Walter et Bassam Baraké(2006), Arabesques. L'aventure de la langue arabe en occident.Robert Laffont/Edition du temps.
2. Arabesques .p55
3. Ibid.p.56
4. Ibid.p56-58
5. Ibid.p68
6. Ibid.p69
7. Ibid. P69-70
8. Ibid.p70
9. Ibid.p70-71
10. Ibid.p75-76
11. Ibid.p77-78

12. Ibid.p78
13. Ibid.p7879-81
14. Ibid.p81-82
15. Ibid.p82
16. Ibid.p86
17. Ibid 86-87
18. Ibid 87-88
19. Ibid p96
20. Ibid p97
21. Ibid p 98
22. Ibid p284
23. Ibid p284-287